إطلالــة أوليــة

في دورات متتالية، ومواعيد لا تتخلف، يعود شهر رمضان ليطل على الأمة الإسلامية، ممثلاً لها محطة نقف عندها لنتزود من الخير الذي يحمله، ومن القيم التي يمثلها، وما يعينها على المضي في حمل رسالتها، ولتراجع على ضوء هذه القيم مسيرتها، وتحدد الإيجابيات والسلبيات التي مرت بها في سلوكياتها. فتحاول تدعيم الأولى، وتتجنب الثانية.

هذا الشهر الكريم الملئ بالقيم المفعم بالخير، نحتاج إلى استكشاف الدور الذي يمثله في حياة الأمة، والعبر والعظات التي يقدمها لنا.

إن أول صفات هذا الشهر أنه شهر القرآن، فيه نزل وفيه يتلى أكثر من غيره من الشهور، حيث سّن لنا رسول الله ﷺ صلاة في رمضان، يتلى فيها القرآن ويختم مرة أو مرتين أو أكثر، والهدف من تلاوة القرآن ليس الترديد وإنما التدبر وأخذ العظة والعبرة. يقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص:٢٩].

ففي شهر القرآن على أصحاب العقول ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أن يتدبروا آياته، ويستنبطوا القيم التى يدعو إليها، ويطالب المسلمين بتطبيقها في حياتهم وشئونهم المختلفة.

والكتاب الكريم يحمل الكثير من القيم التى توجه السلوك الإنساني في جوانبه المختلفة (الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وغير ذلك من جوانب الحياة).

والصوم نفسه قيمة من أهم هذه القيم ذات التأثير الاقتصادي على المستوى الفردي والجماعي، فشهر الصوم ـ انطلاقًا من كل ما سبق ـ فرصة سانحة أمامنا

لمحاولة الوقوف على عدد من القيم التي تحكم الجانب الاقتصادى في حياتنا، باعتبار هذا الجانب أهم الجوانب ذات الانعكاس على الحياة، وذات التأثير على غيرها من الجوانب. إنها توجيهات الإسلام في الجانب الاقتصادي من الحياة، وتحت هذا العنوان سنحاول استعراض عدد من القيم الإسلامية الاقتصادية، خليق بنا في شهر رمضان أن نقدمها للمسلمين، ليعلمها من لم يكن يعلمها ويطلع عليها من كان يجهلها، ويزداد بها تمسكًا من كان يطبقها ويتمثلها في حياته.

إن توجيهات الإسلام الاقتصادية منارات هادية للمسلمين في ظلام الأنظمة الاقتصادية التي تقدم للمسلمين قيمًا مغايرة، وتوجيهات مخالفة، تجعل حياتهم مليئة بالمشكلات التى ما كانت لتصيبهم لو أن توجيهات هذا الدين هى التى تحكم حياتهم، وتوجه سلوكياتهم. وما كانت الإخفاقات المتتالية لتصيبهم لو أنهم يتمثلون هذه القيم، ويطبقون هذه التوجيهات.

فهذه التوجيهات تمثل مقومات التقدم المطرد والنمو الدائم، والرقى المستمر، لكن تجاهل المسلمين لها حرمهم من كل ذلك، ومن ثم أضحت الحياة على مختلف الأصعدة غير طيبة.

ومن العجيب أن تمنح أمة كل مقومات النهوض وكل أسباب العيش الرغد، فإذا هي تلقى بها وراءها ظهريًّا، ثم تجرى هنا وهناك لتتسول ما تظنه محققًا لتقدمها، أو مساعدًا على خروجها من تخلفها الذي ترزخ تحته، وأعجب من ذلك أن الذي يقدمه لها من تتسول منهم، لا يقارن بما لديها ولا يقاربه، فإن قال لها المخلصون إن ضالتك بين يديك، وإن بغيتك تحت قدميك، أشاحت بوجهها، وولته شطر الشرق أو الغرب، تستورد من أفكاره ما يضرها ولا ينفعها، ويؤخرها ولا يقدمها.

إن ذلك هو حال أمتنا اليوم، وهي التى كتبت في تاريخ الحضارة الإنسانية صفحات وضاءة يوم أن كانت تتمثل هذه القيم وتطبق تلك التوجيهات.

إن أمتنا الإسلامية لديها من المناهج الاقتصادية أقومها ومن النظم المالية أسلمها، ومن الأدوات أكثرها فعالية ومقدرة على الإنجاز، وتحقيق النهوض والتقدم. ومشكلتنا في الاستفادة من كل هذا العطاء للإسلام. ومن بدهيات التطبيق والالتزام ثم الاستفادة أن نعلم هذا العطاء، وأن ينتشر العلم به بين الكافة (عامة المسلمين وخاصتهم) على هذا الهدى الذى جاء به الإسلام، فلسنا في حاجة إلى استيراد قيم، ولسنا في حاجة إلى نقل سلوكيات من الآخرين، وإنما يكفينا ويدفع بنا إلى الأمام أن نتمثل قيمنا في حياتنا، وأن نضبط سلوكياتنا على ميزان ديننا، وعطاء شريعتنا. إن عددًا من القيم الإسلامية أدركها غير المسلمين ونقلوها وتمثلوها في حياتهم واستفادوا من عطائها تقدمًا، وحياة ذات قدر كبير من الراحة والتنظيم، وكنا الأولى بهذه القيم وتلك التطبيقات من غيرنا، فهى بالنسبة لنا تكاليف دينية، وأوامر إلهية، وسنناً نبوية. فهل آن لنا أن ننفض الغبار عن قيمنا الأصيلة وسلوكياتنا الراقية التي يأتي بها شهر الصوم ليذكرنا بها، ويدعونا إليها؟

إن الصوم - في جوهره - ليس الامتناع عن الطعام والشراب وأمثالها، مما كان مباحًا من قبل، وإنما هو قبل ذلك الامتناع عن كل سلوك شائن وكل تصرف لا يليق بالمسلم الذي التزم بصراط الله المستقيم، وقَبِلَ أن يتبعه، وبايع ربه على ذلك، فمن لم يترك السلوكيات الشائنة، والأخلاقيات الرديئة، فليس لله تعالى حاجة في أن يترك الطعام والشراب «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ

وَشَرَابَهُ»، «وَرُبَّ صَائِمٍ - صاحب السلوكيات الشائنة - لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ».

هل اكتشفنا من ذلك أن الصوم وسيلة وليس غاية، وأنه دورة تدريب لتجديد الإيمان والمحافظة على القيم، والوقوف عند السلوكيات الصالحة البانية للحياة؟

حول توجيهات الإسلام الاقتصادية تتمحور محاولتنا في الاقتراب من عطاء الإسلام في هذا الشهر الكريم، سائلين الله تعالى أن يمن على هذه الأمة بحسن الامتثال حتى تستعيد بذلك عزتها وحياتها الطيبة وتسهم في بناء الحضارة الإنسانية من جديد.